الفصل العاشر

مُشكلة السِّيخ

مَرت خسمة أسابيع تقريباً ما بين إعلان المِسْتِر (أتْلي) عن تَرْك اللورد (ويڤل) لِمَنْصِبِه كنائب للملك وبين يوم رحيل الأخير. وفي تِلْكَ الأيام الحبالى التي حملت عِبْءَ تاريخ جديد، حدثتْ أشياء هامّة كثيرة خلال تلك الفترة القصيرة، لم يكتب أحدٌ عنها حتّى الآن؛ ويمكن البدءُ في وصفِها بالدخول في موضوع السيخ الذين لَعِبُوا منذ آذار ـ مارس ـ دوراً خطيراً في أحداث كوارث عام ١٩٤٧. فلولا وجود هذه الطائفة المتميّزة، وفي موقعها الجغرافي الخاص على الخريطة بالنسبة لِتَقْسيم شبه القارّة، كان مشروع قيام باكستان ووجودها المُبَكِّر مُخْتَلِفاً وأكثر بساطة وسعادة. لذا يحتاج السيخ إلى فصلٍ قصير لذاتهم ـ في هذا الكتاب ـ.

كثير من المطّلعين لا يعرفون شيئاً، أو يعرفون شيئاً قليلاً جدًّا عن السيخ وتاريخهم غير العادي. وهذا ينْطبق على الهنود والباكستانيّين وغيرهم من الأجانب، وهو صحيح بخاصّةبالنسبة للسيد محمد علي جناح والسيد لياقة علي خان وغيرهم من الرجال المُهِمّين في الرابطة الإسلامية وحزب المؤتمر. وكان هذا النوع من الجَهْل خطيراً في شتاء عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧.

لاشكّ أن أَحَدَ عوامل الجَهْلِ بهم هو أن مجموعهم هو سِتّةُ ملايين فقط، وهو عدد ضئيل إذا ما قيسَ بعدد الطوائف الأخرى في جنوب آسيا. فالهندوس و المسلمون والبوذيون هم الطوائف التي اهتَمَّ بها الباحثون في أمور آسيا والأديان المقارنة. اثنان فقط من الكُتّاب البريطانيين المعروفين كَتَبا بصورةٍ شاملةٍ عن السيخ: (ج. د. كانِنْغْهام، وماكاليف). والجدير بالملاحظة أن كتابا جديداً يَعْرِضُ على الغربيين خلاصة الحِكْمة الدينيّة الشرقية واسمه «الفلسفة المتواترة» لإلْدُوسْ هَكْسْلِي لا يحوي مرجعاً واحداً لرجال الدين السيخ ولا لِكُتُبهم المُقَدَّسة. مع أن بعض الكتابات المعزوّة إلى (ناناك) أو (أَرْجون ديف) رفيعة المستوى رُبّما تصل إلى مستوى كتابات بعضِ المسلمين من أمثال جلال الدين الرومي أو كتابات التَصَوّف الهندوسي والبوذي.

ومع ذلك فقد يكون للجاليات الصغيرة تأثيرٌ كبير على الأحداث... كاليهود مثلاً.

والناس المتسرّعون من ذوي الذِهْنيّة المعاصرة كاللورد (مونْتْباتِنْ) وبعضِ مساعديه الذين أَهْمَلُوا في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٧ قُدْرَةَ عامل السيخ المؤثِّرِ في موضوع التقسيم المعقّد، رُبّمَا تَذَكّرُوا ذلك وتذكروا أيضاً أن السيخ هم أكثر عدداً من الاسكتلنديين[١] الذين كان إسهامُهُم في أحداث العالم غير قليل.

ومن النظرة الأولى لِعَيْنِ الغربي، يبدو السيخ في معتقداتهم الدينيّة وتفاصيل حياتهم اليومية أقرب بكثير إلى المسلمين مِنْهُم للهندوس. فهُم يعتقدون بإله واحد وبكتاب مُلْهِمٍ وبنبيّ (أو بِتَعاقُب عشرة من الأنبياء) الذين نقلوا الوحي للبشرية. وبِعَكْسِ الهندوس والمسيحيين الكاثوليك فهم يرفضون ويكرهون التماثيل والأصنام والأنهارَ المقدّسة والمغاور والجبال والتقشُّف الشديد والعزوبيّة. وأنبياؤهم أي (الجُورو) كانوا من رجال الدُنْيا ولقد عملوا بالتجارة والزراعة وتزوّجوا وأنشأوا عائلات. (ومِثْل نبيّ الإسلام) ركّزوا على كونهم بَشَراً لا يُعبدون أبداً كما هو الحال في تَجَسُّدِ الإله!. وليس للسيخ كهنةٌ (فَرجال دينهم granthis) هم فقط قُرّاء كِتابِهم المُقَدَّسِ وليس لديهم نظام الطبقات والواقع أن ديانتهم بدأت كثورة على نظام الطبقات وهي ضد التعقيد والتَطَيُّر اللذين نادى بهما كهَنَةُ البْرَهْمَانية. ومثل الإسلام كان دين السيخ حركة بساطةٍ وتطهير. لذا فهم أمام الله وبين زملائهم السيخ متساوون من حيث المبدأ، وتدعوهم ديانتهم للأكل معاً والعمل معاً واقتسام ضروريات الحياة اليومية على كلّ المستويات. وعمليًّا وكجاليةٍ واقعيّة هم على العموم أكثر استعداداً ـ ربما أكثر من المسلمين والمسيحيين ـ للاعتراف بِصِدْقِ أن المساواة.. قليلاً ما تنْجح ـ في التطبيق ـ رغم وجود النظرية. كذلك بالنسبة لعادات الطعام فَهُم مثل المسلمين يأكلون اللحم ولا يعرفون «نباتيّة» كما هي عند الهندوس ولا يعرفون (الأهِمْسا ahimsa) أي عدم إيذاء الكائنات الحية، ويتخلَّلُ تاريخهم وإيمانهم معارك باسلة في قَعْقعة السلاح. فلا تجد نظريةُ غانْدي المسالمة أيّ مكان لها في ديانة السيخ التي بَلْوَرَها الزعيم الروحي العاشر و الأخير (غوننْدْ سِنْغْ). وهم قبل كل شيء ـ مثل المسلمين أيضاً[٢] ـ!

---

(١) خمسة ملايين اسكتلندي بمقابل ستّة ملايين من السيخ؛ وكلا الجماعتَين من المُتَنَقِّلين النَشِطين، ونسبةٌ كبيرة منهم يعيشون ويعملون خارج بلادهم.

(٢) هذا الرأي للكاتب هو استمرار للأفكار الخاطئة التي يحملها الغرب، حتّى الآن، عن الإسلام والمسلمين والتي يُروّجها الكارهون للإسلام في مجال نَقْدِهم وتهجُّمِهِم. الإسلام هو دين السلام والمحبة والعدل والتعايش البنّاء في إطار أخلاقي لا ضرر فيه ولا ضرار، والمسلمون لا يُحِبُّون الحرب ولا يمارسون إلا الجهاد عند وجوبه. (المُعَرّب)

رجال حرب. هذه الحقيقة هي التي مكّنَتْهُم، متمسّكين بحكومة دينيّة بزعامة (رانْجيت سِنْغْ)، في القِسْم الأخير من القرن الثامن عشر، من أن يُصْبِحُوا سادة البَنْجاب، وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر سادةً أيضاً على أغلب أرض الباثان وكشمير.

قال عنهم (ج. د. كانِنْغْهام) في الصفحة الأولى من كتابه الذي صدر عام ١٨٤٤م: «إنهم أصبحوا الآن شعباً، لقد احْتَلُّوا ووسَّعُوا نفوذهم من (دِلْهي) إلى (بيشاور) ومن سهول السِنْد إلى جبال (كَراكُورَامْ). وإذا رسمنا قاعدةً على امتداد ٤٥٠ ميلاً من (بنياثْ) إلى مَمَرِّ خَيْبر، يمكن تشكيل مثلَّثين متساويي الأضلاع فوق هذه القاعدة يضُمُّ ما اكتسبه (رانْجيت سنغْ) في غزواته، والمستعمرات الثابتة لِشعْب السيخ» . وهذا وصفٌ يُؤكِّدُ وضع السيخ الإمبريالي ـ الاستعماري ـ لذا، بالنسبة لِنَظْرةِ مسيحيّي بْرُوتِسْتانْتي غربي، التشابهُ شديد، في الظاهرة بين المسلمين والسيخ في الأمور الاجتماعية والدينية والماديّة. وخلال حُكْم البريطانيين للهند كانت نظرةُ البْرُوتِسْتَانْتْ هي الأكثر نفوذاً في الواقع، ويجب أن يُعْزَى في الغالب بعضُ سوء الفهم لهذه الحالة. والشعور الشديد بالتباعد بين المسلمين والسيخ ـ وهو الأمر الذي لا يعيه الغربي القليل الاطّلاع ـ الناشئ عن تقاليد تاريخيّة أُخرى، ينْبع من ناحية من حقيقة غزوات السيخ وسيطرتهم في أوائل القرن التاسع عشر على المناطق الواقعة بين (بِنْياثْ وخَيْبر)؛ ومن الأحداث الفظيعة التي حَلّت بالسيخ خلال السنوات المئة والخمسين الماضية على أيدي المسلمين. فالتاريخ، بخاصّة إذا كان قريباً ودمويًّا يُؤثّر في عامّة الناس أكثر من الثقافة والعقيدة الدينيّة. فقصص الاضطهاد و الموت والقساوة والمعارك والانتصارات ومخازي الهزائم تجلب انتباه الرجل العادي، لسوء الحظ، أكثر من أقوال القِدّيسين. قليل من المسلمين يستطيع تجاهل.. الشعور بالإهانة عندما يرى أنه بعد أكثر من سبْعة قرون من الحكم الإسلامي الوحيد في المناطق ما بين (دِلْهي) و(كابول) يُسيطر السيخ ويتولّون الحكم ليس فقط في البنجاب بل فوق أكثر سهول الباثان وكشمير. ويستطيعون ممارسة العنف الشرس والاغتصاب بدون رادع في أراضٍ غالبيتُها مسلمة، وإنّ (رَانْجِيتْ سِنْغْ) اسْتطاع أن يكون حاكماً مُتنَفِّذاً في لاهور مثل كثير من سلاطين (دِلْهي) السابقين وإنه كانت هناك قلاع احْتلَّها السيخ وسيطروا بها على الريف المسلم من (مُلْتَانْ) إلى (أَتُوكْ)، وإنّ (هَاري سِنْغْ نَلْوَارْ) احتلَّ مَعْقِلَ جَمْرودْ في مَدْخلِ (خيبر).. هذا الممرّ الذي عبر خلاله الفاتحون المسلمون بالتتابُع ودخلوا مُنْتَصِرين من آسيا

الوسطى في الماضي؛ وأن هذه الأمور... الفظيعة المُذِلّة لِعِزّ المسلمين حصلت منذ عهدٍ قريب قبل أقلّ من مئةٍ وخمسين عاماً فقط. وكما لاَحَظَ (كارُو) إن كلمة (سيخ شاهي) ـ أيْ حُكْمْ السيخ ـ تعني لِمُسْلِمِي تلك المنطقة، عندما تتردَّدُ على شفاه المعلمين والتلاميذ حتّى هذه الأيام، الحُكْمَ السَيّئَ الظالم.

كذلك لا يستطيع أيٌّ من السيخ أن ينْسى تعذيب وموت الجورو (أرْجُون ديف) عام ١٦٠٦ في (لاهور) وكان سجيناً ضعيفاً للإمبراطور المَغُولي (جاهانْكير).

ولا إعدامَ (تغْ بَهادُوْرْ) في (دلهي) أثناء حُكْم (أُورنْغْزيبْ) واضطهاد الأخير الشديد لآخر وعاشِر زعيم روحيّ للسيخ (غُوْبَنْدْسِنْغْ) ووَأْدِ وَلَدَيْه في (سِرْهَنْدْ)، كذلك البربرية المماثلةُ التي مارسها السيخ على المسلمين إبّان حُكْم (مِرّوخْ سِيار) السيخيّ كما وصفها (بارْسْتُو)، بعد أن مَزَّق جَسَدَ أحدِ أصحاب (غوبانْدْ) بكَمّاشَةٍ حديديّةٍ مُحَمّاةٍ بالنار بعد ما أُخبِر عن قَتْلِ ولده؛ وعندما كان يُعدَمُ يوميًّا شَخصٌ من السيخ حين كانوا يدّعون أنّهم يموتون (شهداء)! هذه المظالم حَلَّتْ بالسيخ على أيدي الحُكّام المغول في (دِلْهي). كذلك اضْطُهِد السيخ على أيدي حُكّام (قَنْدَهار) و(كابول) بخاصّة تخريب قُوّات أحمد شاه الغازية مَرّتين خلال عقد واحد من الزمان ١٧٥٧ ـ ١٧٦٧، لأماكنهم المُقَدَّسة في (أَمْرِسْتَارْ) ولقد استمرّت هذه الأوضاع في الفترة الأخيرة من مرحلة تمْتينِ عقيدة السيخ والفترة المُبَكِّرة من استلامهم الحكمَ والسلطة. وبقيت هذه الأحداث في ذاكرتهم ولم تسمح لهم بميلٍ أو عاطفة حُبٍّ نحو المسلمين رغم التقاليد العمليّة المشتركة بيْن الديانتين، إذ يبدو أن فكرةَ التوحيد، ووحدانيّة الإله تمتزجان تقريباً.

وعلى الجانب الآخر تقف الهندوسيّة مُنتظِرة بهدوء عودة السيخ، متناسيةً أو نافرةً من كلّ حركات الهَرْطقةِ الماضية المُنْحرفة عنها، ومُسْتعدّةً في الواقع لِضَمّ أي شيءٍ لأحضانها الواسعة غير الواضحة. فالسيخ، رغم خروجهم عنها، كحركة إصلاحية ساخطة لايزالون يُعْتَبَرونَ هنادِكةً بنظرها. والمنشقّون يستطيعون الانفصال، كما فعلوا مرّاتٍ ومرّات عبر القرون ـ (بوذيون) و(جِينْ) و(فِشنافْ) وغيرهم ـ في ثوراتٍ قويّةٍ ضدّ ما اعتبروه قُصور البَرَهْمانيّة أو سوء ممارساتِها.

ولم يحصَلْ أيُّ شيء فلقد بَقُوا هِندوساً ـ حتّى المتطرّفون من السيخ مثل (الأكالي) و(النِيهانْغْ)؛ هذا ما يسمعه أيّ سائلٍ في أيّ معبدٍ بوذيّ قديم في أيّة قريةٍ أو يعرفه من

حارسِ أيّ معبد جديد ضخْم مثل معبد (برلاَمَنْدير في دلهي الجديدة). ولم يكن هناك أيّ مانع للتزاوج بين الهندوس والسيخ كما هو قائم بين الهندوس والمسلمين أو بين الهندوس والمسيحيين. كانوا طائفة واحدةً في القديم وهم الآن كذلك. فالطريق لِعودةِ أي سيخيّ إلى الهندوسية سهل: بعضُ الطقوس القليلة للكفّارة وبعض الكلمات «المقدّسة» ! من شفاه أحد البْرَاهْمَانيين... ورَنين بعض النقود.. وينتهي الأمر بعودة السيخيّ التائب مرّة أخرى إلى عالم أجداده؛ وهذا العالم المتناقض.. الجذّاب والمُنَفِّر معاً، المُتسامح بصورةٍ واسعة رغم ضيق السياج المحيط به، حيث الخير والشرّ، عُبّادُ الأوثان.. والمُحَطِّمون لها، وفيه تختلط كلّ المتناقضات ذات السياج الصلب، الأسود والأبيض يذوبان في «عصيدةٍ» مغليةٍ رماديّةِ اللون تُمْتَصُّ بهدوءٍ وراحة!

لذا في شتاء عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ واجه السيخ التغيّرات السياسية الكبرى بذهْنيّة مُنقسمة، فباستثناء بعض الحوادث في (كلكوتّا)، كانوا لايزالون غير مُنْخَرطين بالحرب الأهلية. إذ لم تكن هنالك فرصة لانغماسهم الكامل، وعدد السيخ في منطقة (بوكالي) وشمال (بيهار) وحول (كارْمَكْتِسْوارْ) كان صغيراً جدًّا. والذي فهموه من الأحداث الواقعة ـ ولم تكن شيئاً كثيراً ـ، وحتّى الزعماء الروحيون للسيخ افتقدوا في الغالب الحكمة السياسية رغم ميلهم الشديد للخداع، نقول شعروا أنّهم مشدودون لاتّجاهين متعاكسين. فقرنان ونصف من التاريخ المُتجَهِّم جعلهم في موقفٍ لا تردُّد فيه ضد المسلمين، وكان هذا في الواقع واضحاً في منظّماتهم السياسية الرئيسة المعادية مباشرةً لتعبير «التجمّعات» المقترح في خطّة البعثة الوزارية البريطانية في أيّار ـ مايو ـ ١٩٤٦. ولكنّهم كانوا في نفس الوقت يعون التشابه العملي بين السيخ والمسلمين في أساليب معيشتهم ويعرفون أن للديانتين نِقاطَ تلاقٍ في الأمور الهامّة، ومع أنّهم لم يكونوا على خصومةٍ خاصّة مع الهندوسية كان بعضهم ـ بخاصة المتنفّذين من جماعة (أكالي) ـ لا يثق بدوافع الهندوس، وكانوا متّفقين على ما ذكره (بارْسْتُو) من: «أنّ الهندوسيّة، في الحقيقة كانت دائماً معاديةً للسيخ لأنّ الزعماء الروحيين للسيخ هاجموا مبدأ (الطبقات)، ولذا فقد اجتهد الهندوس بالضرورة لِدَحْرِ السيخ فلقد حرموا أولاد الزوج السيخيّ من «التعمُّد» الهندوسي وأغرُوا السيخ المتعبّدين بترك ديانتهم. ولقد خنقت الهندوسيّة البوذيّة إذ كانت الأخيرة، في فترةٍ ما، أهمّ منافسيها، وهي تحاول الآن بنجاح خَنْقَ السيخ» . وهناك قسم من زعماء السيخ يُقرُّون هذا الكلام.

وانفصام الشخصيّة خَطِرٌ على المريض وعلى غيره بخاصّةٍ إذا كان المريض قويّ البُنية بارد المزاج لكنّه قادر على القيام بأعمال وحشيّةٍ مخيفة إذا اسْتُثير، وكان السيخ في مثل هذه الحالة، عندما كانت التغيّرات الكبيرة قاب قوسين أو أدنى عام ١٩٤٧ ولسوء الحظّ أيضاً كان موقفهم بين جاذبين باتّجاهين متعاكسين وهم يشاهدون الصراع المتنامي بين الهندوس والمسلمين، موقفهم هذا قد عقّدته عوامل أخرى. والسيخ بطبعهم أو بتقاليدهم فرديّون وديموقراطيّون ويتجادلون مع زعامة آخرين أكثر فرديّةً سواءً كانوا من السيخ أو من غيرهم. رجال لهم مزاج (رانْجيت سِنْغ) أو (هَنْرِي لُورَنْس)؛ ولكن، كانت قيادتهم في تلك الأيام ضعيفة لِقِلّة عددهم من جهة ولأنّ مهاراتهم عملية ونتيجة هذا العامل الأخير كان صفوة قومهم يتّجهون لأعمالٍ خارج إطار السياسة. لذا، عندما واجهوا في عام ١٩٤٧ الحاجة الماسة لاتّخاذ قرارات كبيرة تحتاج مُنْتَهى الحصافة لم يكن كثير منهم مؤهلين لذلك وكانوا مشغولين في أماكن أخرى: في الوظائف الحكومية مدنيّةً وعسكريّة أو في الأعمال التجارية الخاصّة.

والسياسة بالنسبة للسيخ آنذاك كانت مهنة لم تكتسب بعدُ الثوب اللائق.

ورغم أن السيخ، عبر القرون، أظهروا في الغالب تماسُكاً مشهوداً إلاّ أن إنجازهم هذا كان إلى حدٍّ ما بصورةٍ عفوية؛ وكما ذكر (سْبِيرْ) فإن استلامهم للحكم في أواسط القرن الثامن عشر كان سريعاً ولكن بدون أيّ نظام، ولم يكن عندهم رئيس قويّ يضبُطهم ولم يكن هناك زعيم يرضون عنه، يُوجّهُ تحرّكاتهم.

حتّى (رانْجيت سنْغْ) نفسه لم يدّع السلطة الفردية المطلقة للملك التقليدي فحتّى النهاية، ورغم تَبَنِّيه لِلَقَب (مِهْراجا) كان يقول إنه ليس أكثر من واحدٍ من عامّةِ المؤمنين السيخ (khalsa)؛ لقد كان نوعاً ما رئيسهم المنتخب. وعندما تكون هناك قرارات رسميّة يجب اتّخاذها، يكون ذلك ـ نظريًّا على الأقل ـ بصورةٍ ديموقراطية. هناك حلول وسط يجب التوصّل إليها، ويجب أن يكون للناس العاديين، بالإضافة للمطّلعين والبارزين، فيها رأي. يتحمَّسُ بعض الرومانْطيقيّين الغربيّين أحياناً... لِـ (جاتْ سنْغْ) الفلاح في سهول البنْجاب الفسيحة، أو لِرجلِ الباثان القَبَليّ الواقف على شفا جُرُفٍ يداعب زناد بندقيّته في (وزِيرْسْتانْ) إذْ يجدونهما، في أساليبهما الخشنة من الديموقراطيين الخُلَّص: تجسيداً للمثالية الإغريقية. ولكن المشاعر الديموقراطية الصحّية بين الفلاحين والرعاة ... ربما لم تُساعد السيخ والباثان بأكثر ممّا ساعدت قُدماء الإغريق في أمور دولتهم المؤلفة من مدينةٍ واحدة، وفي اتّخاذ القرارات الحكيمة الكبيرة في المسائل العاجلة.